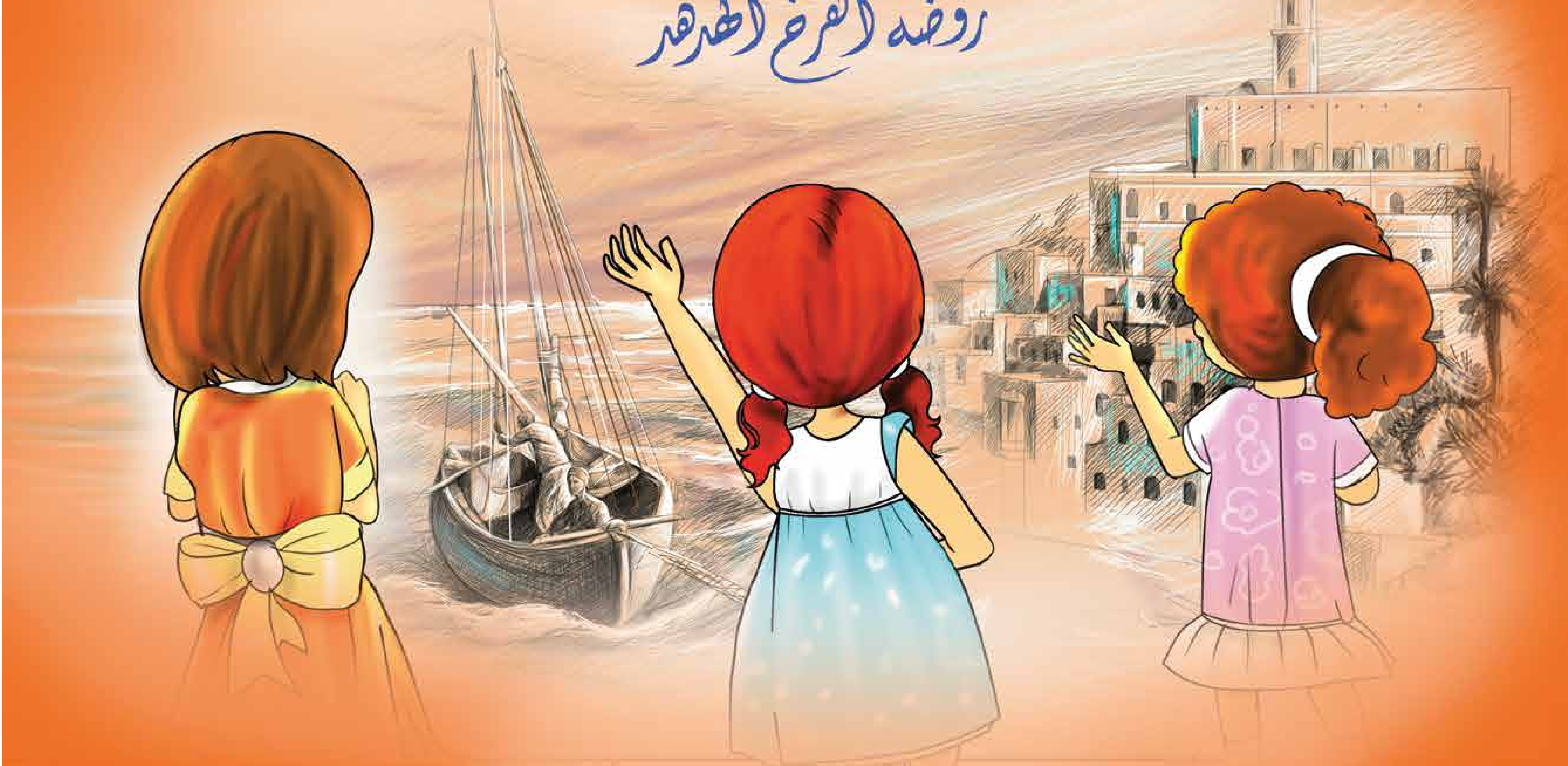
في ذاكرة الزمان والمكان (1)

وَعُدْنَ إلى يافا

روضة الفرخ الهدهد



في ذاكرة الزمان والمكان (1)

وَعُدْنَ إلى يافا

الكاتبة

روضة الفرخ الهدهد

رسوم وإخراج الفنان : رائد القطناني

دقق النص : الكاتب محمد عواد

إهداء

إلى أخـواتي : ازدهـار "أزدي" وافتخـار "أفتـي" وانتصـار "أنجـي" اللـواتي أشـعلن في قلبـي الحب والحنين ليافا مسقط رأسي و رؤوسهن .

الى الزميـل صبحـي طـه والزميلـة ريمـا ملحـم وزملائهـما في مشروعهـم ـ حفـظ الـتراث والتاريخ والحضارة لمدن فلسطين المغتصبة.


بسم الله الرحمن الرحيم

في ربيـعِ عـام 1980 حَزَمَـتِ الأخـواتُ الثـلاث "إزدي" و "أنجـي" و" أفتـي" حَقائبهـنّ واتّجهـنَ إلى الجـسرِ للسَّـفرِ إلى يافَـا .. كانـت هـذهِ أوّل زيـارةٍ لهـنَّ ليافـا بعـدَ فـراقٍ طويلٍ دامَ خمسينَ عاماً.

في السّـيارةِ بَـدأت كلُّ واحـدةٍ تُحـدِّثُ الأخريـات عـن مشروعِها "السِّـياحيِّ" في يافـا .. أيـنَ ستذهبُ ، ماذا ستُشاهد ، عمّن سَتسأل .. ماذا سَتشتري ... ماذا سَتأكُل..

ولكـنّ السـائق وقبـلَ أن تصـلَ السَّـيارةُ إلى مشـارفِ يافـا عـن طريـقِ القُـدسِ - يافـا ، قـدّم لهـنّ عصـيراً ، قـال إنـهُ عصـيرٌ مـن برتقـالِ يافـا ..فهـو - كـما قـال - أيضـاً مـن يافـا وهو يَعرفُها أكثرَ مما يعْرفْنَها.


جسر الملك حسين

أخـذت الأخـواتُ الثـلاث كـؤوسَ البرتقـالِ وشرِبْنهـا دفعـةً واحـدةً ، ويـا لهـول مـا حصـل ! لقـدْ عـادت كلُّ واحـدةٍ منهـنّ بالعمـرِ إلى عهـدِ الطّفولـةِ .. صَغِـرتْ أحجامُهـنَّ ، طـالَ شـعرهنَّ ، انكمـشَ خصرُهـنَّ ، كَـبُرتِ الأحذيـةُ عـلى أقدامِهـنَّ ، حتـى لمْ يَعُـد شـيءٌ كـما كان !!.

ضَحِكَ السائقُ قائلاً في سِرِّه : لقد خسرنَ خمسينَ عاماً مِنْ أعمارِهنَّ !!

وصرخـتْ "إزدي" بالسـائقِ تنهـره بشـدةٍ وهـي تقـول : مـا هـذا يـا عـمّ ؟ مـا هـذه الأكـوابُ الكبـيرةُ التـي بأيْدينـا ؟ أيـن بيـت أبي وأمّـي ؟ أنـت بعيـد جـداً عـن بيتِنـا في النزهة ... ألا تعْرف النُّزهة ؟ اذهب إلى هناك وسَأدلّك على الطريقِ .

وقفـتِ الأخـوات أمـامَ بوّابـة منزلهـنّ .. بوابـة حديديّـة ترتَفِـعُ فوقهـا شُرفـة تُطِـلُّ عـلى الطريـقِ العـامِ .. دَخلـتِ الأخـواتُ الثـلاث وهـنَّ ينَاديـنَ عـلى أمِّهـن التـي كانـت في المَطبخِ تُعِدّ لهنّ طعامَ الإفطار !!.



لقدْ تأخَّرنا يا أُمِّي .. سيدقّ جرس المدرسَةِ بعد قليلِ ، ولنْ تقبلَ المديرةَ أن نَصطفَّ بالطَّابورِ إنْ تأخَّرنا ..هيّا .. هيّا ..

في ثوانٍ لَبِسَتِ البناتُ مراييلَ المدرسةِ السوداء ذاتِ القَبةِ البيضاءِ مع الجرابين البيضاءِ، وانطلقنَ إلى مدرسةِ الزهراء ووقفنَ في الطّابورِ الصباحيِّ ، وبعدَ ثوانٍ انطلقَ صوتُ البيانو تعزفُ عليهِ معلمة المُوسيقى أجمل الألحانِ ، لتَدْخُلَ الطّالباتُ إلى صفوفهنَّ على ألحانِها العذبةِ !!.

في الصف وعلى اللوح انتبهت "إزدي" الى تاريخ 15/ 10/ 1940 فقالت في نفسها : بعد أيام سيكون حفلُ زفاف ابنة عمي , والحفل سيكون في البيارة حول بركة الماء وبين أشجار البرتقال , والجميع يتجهز ليكون الحفل رائعا , وسأكون أنا وأخواتي الأروع ... لذلك سأذهب لأشتري حذاءً جديداً .



ولكــنّ الأخــواتِ الثــلاث لمْ يُعجِبهــنَّ البقــاءَ في المدرسَــةِ ، فقــد انسَــحبَت "أزدي" مــن صفّهــا إلى شــوارعِ يافــا الجَميلــةِ لــتَرى فيهــا أحــلى الملابــسِ والأحذيَــةِ .. مشــت في ســوقِ اســكندر عــوض وسُــوق جــمال باشــا وســوقِ الدرهــلّي ، وظلّــت تدخــل مــن دكّانٍ إلى دكّان .. مَــرَّت بالسَّــاحةِ التــي تتوسَّــطها الســاعةُ الكبــيرةُ ، وتأمَّلتهــا مَلِيــاً ، وهــي ترفــعُ رأســها عاليــاً لتراهــا بارتفاعِهــا الكبــيرِ . وظلّــت تتَجــول لا يُهمهــا أحــد مــن أصحــابِ الدّكاكــينِ أو المارَّة الذين يزجُرونَها بنظراتِهِم .

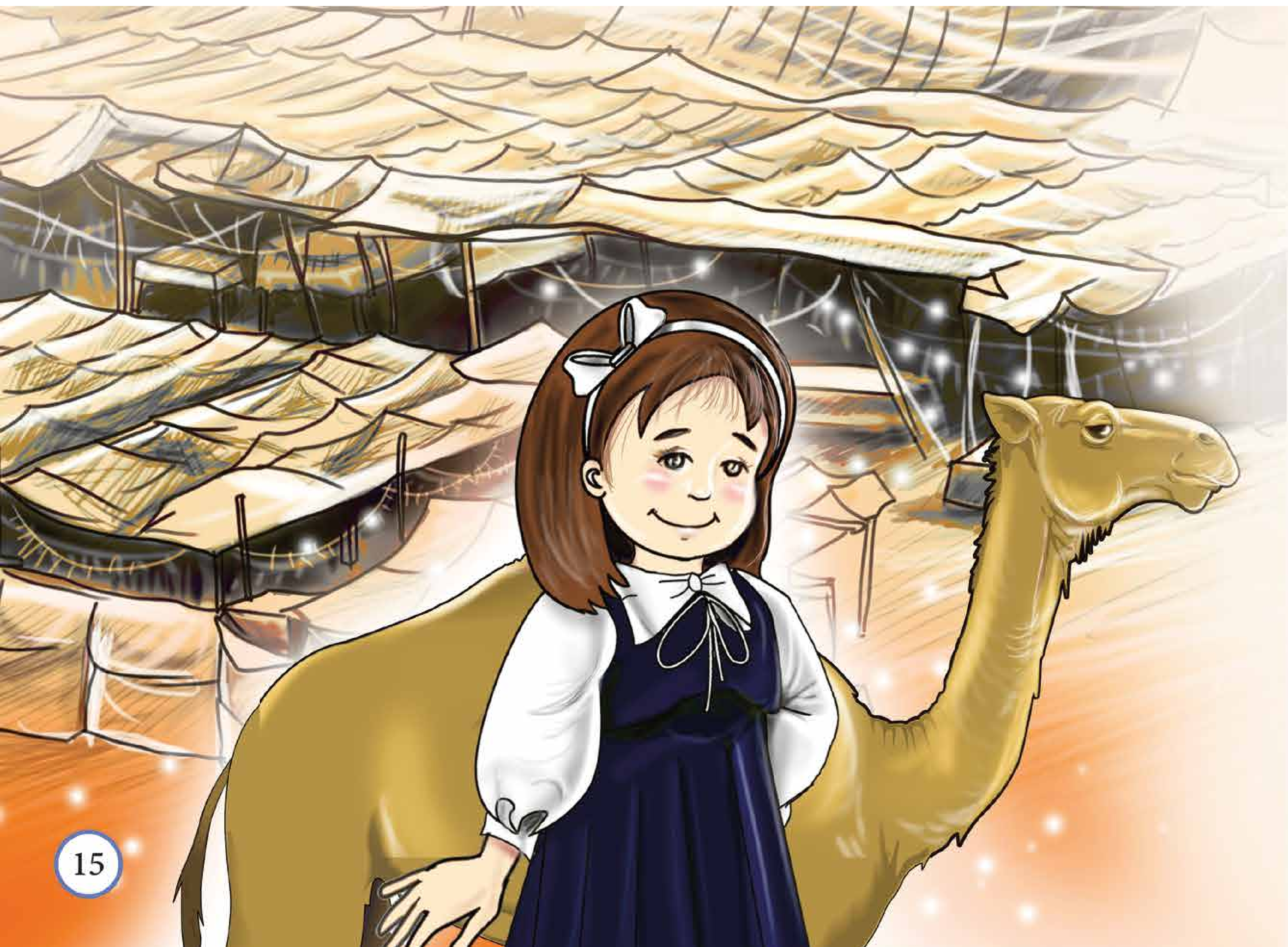


أمّـا الأخـت "أنجـي" فقـد ذهبَـتْ إلى التّلـةِ المُطلّـةِ عـلى البحـرِ ، ونـادتْ عـلى ابنـةِ عمِّتها القاطنـةِ أعـلى التَّلـةِ ، وبـدأتِ الاثنتـانِ بالتّدحْـرجِ مـرَّاتٍ ومـرّات مِـن أعـلى التلّـة إلى آخرِهـا وضحكاتِهـما تَمـلأ الجـوَّ ، وفسـاتينَهما ترْتفِعـان ثـم تنخفِضـان عـلى أفخاذِهـما . كان بيـت عمتِهـا مـن أجمـلِ بيـوتِ يافـا ، فعمتُهـا مـن أجمـل الجميـلاتِ ، وزوجهـا مـن أغنـى الأغنيـاءِ ، وبيتهـما مـن أفخـمِ البيـوتِ المطلّـةِ عـلى البحـرِ الأبيـض المتوسـط ؛ فيـه أرقـى الأثـاث المسـتوردِ ، يزيـن مدخلَـهُ بيانـو أسـود "أبنـوسي" كبـير ، طالمـا كانـت ابنـة عمّتها تتباهى بالعزفِ عليهِ .



أمَّـا الثالثـةَ "أفتـي" فقـدْ اتجهَـتْ مُبـاشرةً إلى الشـاطئ الرّمـليِّ ، لم تكـن تريـد أن تدخـلَ ميـنـاءَ يافـا حيـثُ السّـفن الكبـيرَة التـي تحمـلُ البرتقـال ، بـل أرادت أن تذهـبَ إلى شـاطئ "روبـين" الرّمـلي .. هنـاك كانـت قـد غطّـت في رمـالِ روبـين الناعمـةِ حذاءَهـا الجديـد، حـذاءَ العيـدِ ، وهـي تُريـدُ أن تجـده لتَلبِسـه .. فوالدهـا حذّرَهـا إن لمْ تجـده ، فستذهبُ للعيدِ "حافية القدمين" ولنْ تلعبَ بالمراجيحِ .

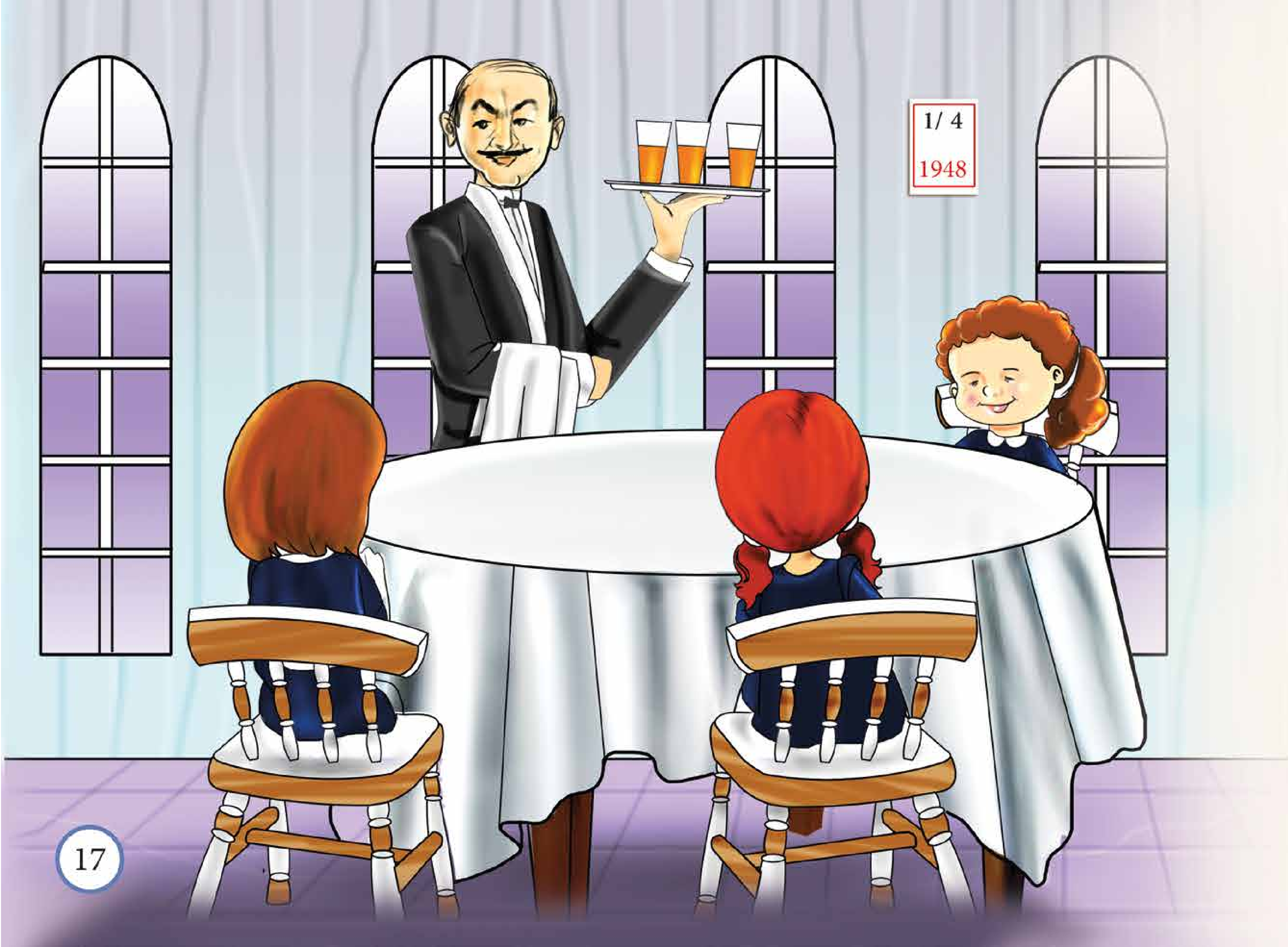
ركبَـتْ "أفتـي" هودجـاً جميلاً فـوقَ جمـلِ متوسّـط الحجـم ، ولمّـا وصلـت شـاطئ رُوبـين أمضـت سَـحابة النّهـار تبحـث عـن حذائهـا في رمـلِ الشـاطئ، و لمّـا لم تجـدْهُ ، راحـتْ تتجـوّلُ عـلى الشـاطئ .. فشـاهدتِ الخيـامَ المزركشـةَ تمـلأ المـكانَ ، ورأت الأسـواقَ المليئـةَ بالبضاعـةِ تفـترشُ الأرضَ ، وأحسّـت بهبـوبِ الرّيـاحِ العليلـةِ مـن البحـرِ وهـي تلعـبُ مـع الأطفالِ الآخرين ، فغمرَ قلبَها إحساسٌ رائعٌ بالحبّ والجمالِ والسعادةِ.



بعدَ ساعات التقتِ الأخوات مرَّة أخرى قُرب مطعم الشّيخ يونس على البحرِ ، ولكنّهن فوجئْن بالنادلِ يَحملُ صينيّةً عليها ثلاثَة أكواب من عصيرِ البرتقالِ أيضاً ، لم تكن الأكواب مُمْتلئة بالبرتقالِ ، بل نصفَ الكأس ، والغريبُ أنّ النادلَ كانَ هو سائقُ السيّارةِ الذي أعطاهنّ كؤوس البُرتقالِ المليئةِ الأولى .. واحتارتِ الفتَياتُ هل يَأخذنَ الكؤوس من يدِهِ أم يرفضْنها ؟ وأمامَ إلحاحِهِ ونظراتِ عينيْه القويّةِ المُخيفة شَربت الفتياتُ الكُؤوس ، فنَمَتْ أجسادُهنَّ ، وتكوّرت صُدورهُنَّ ، وملأَتْ أقدامهن أحذِيتهنَّ ، فنظرنَ لبعضِهنَّ البعض وأخذْنَ يضحَكنَ حتى ملأنَ الجوّ ضحكاً وصخباً وحُبوراً .

وعادَ السّائقُ ،النادلُ، يَضحكُ قائلاً في سرّهِ: الآن اصبح عُمرهنّ خمسةَ عشرَ عاماً ، أترَون!!.

نظرت "ازدي "الى جدارالمقهى فإذا رزنامة كبيرة عليها تاريخ اليوم وهو 1948 /4/1 فأحست بانقباضٍ في قلبها ، ولم تعرف سبب ذلك .


1/ 4
1948

ولمْ تمـضِ ساعاتٌ حتـى اختلـفَ الوضـع ، فلقـد لعْلَـعَ صـوتُ الرصـاصِ فمـلأ الجـوَّ ، وانفجـرَتِ القنابل هنا وهناك ، وهُدّمت بيوت وانهارت بنايات .

سَـمِعَتِ الأخـواتُ التُّجـارَ في شـارعِ اسـكندر عـوض يقولـونَ إنّ محلاتهـم قـدْ هُدّمـت ، وسَـمعْنَ العـمَّال في البيـارةِ يقولـونَ إنّ القنابـل اقتلعـتْ عـدداً كبـيراً مـن أشـجارِ البرتقـال التـي عاشـت فيهـا منـذ زمـنٍ طويـلٍ، أمّـا المتنزّهـون عـلى رمـالِ روبـين فقـد قالـوا إنّ خيامَهُـم اقتُلعتْ ، وبضاعتهم تناثرَتْ ، ولمْ يبقَ منها شيءٌ..

كان الخـوفُ يُسـيطِر عـلى كلّ الوجـوهِ والقلـوبِ ، وقـدْ مـلأتِ الدهشـةُ والحـزنُ والأسى قلـوبَ الفتيـاتِ أيضـاً ، فأيـنَ ذهبـتِ الملابـسُ والأحذيـةً الجميلـة؟!.. وكيـفَ سُـحِقت أغصـانُ شـجرِ البرتقـالِ وتناثـرت حبّاتـهُ عـلى الأرض ؟!.. وأيـنَ تَناثـرتْ مصابيـحُ روبـين وأسـواقُها وخيامُهـا الرائعة؟!.

مـلأتِ الحماسـةَ قلـبَ " أنجـي" فاتجهـت إلى حـيِّ العجمـيِّ ، حيـث كان هنـاك عـددٌ مـن الرجالِ وفِرَقِ الكشـافةِ يُدافعون عن مدينتِهم و يواجهون عصابات المسـلّحينَ اليهود ،



كان عـددٌ كبـيرٌ مـن سـكان يافـا يركضـونَ باتجـاهِ رصيـفِ الميـنـاءِ ، وكلهـم يتدافعـونَ لركـوبِ السـفنِ والقـواربِ الواقفـةِ في البحـرِ، للنّجـاةِ مـن القنابـلِ والرصـاصِ ، تركُـوا يافـا دونَ وداعٍ ، ورَكِبوا السُّفنَ لحينِ انتهاءِ الحربِ وتوقّفِ القتالِ .

فجـأةً ظهـرَ الرجـلُ ذو العينـينِ الغريبتـيْنِ واقفـاً عـلى ظهـرِ سـفينةٍ في الميـنـاءِ، كان يَحمِـلُ حبـالاً سَـميكةً يَربِـطُ بهـا السـفينةَ إلى الشـاطئ .. نظـرَ إلى الفتيـاتِ وأشـارَ لهـنَّ بالصعـودِ بسرعةٍ إلى السفينةِ.

في لحظـاتٍ كانـت الأخـواتُ الثـلاث يُمسِـكْنَ يـدَ الغريـبِ ويصْعَـدْنَ إلى السّـفينَةِ ، بينـما كانـتْ صينيّة ملآى بعصيرِ البرتقالِ تنْتظِرُهُنّ !!!

** تمَّت **







الأديبة

روضة الفرخ الهدهد



صدر للمؤلفة الكتب التالية للاطفال :

- سلسلة حكايات بطولية للأطفال (26-1) تناسب الطلاب من الصف الرابع.
- سلسلة حكايات الغول (3-1) تناسب الطلاب من الصف الثاني.
- سلسلة قصص الصحابة (2-1) تناسب الطلاب من الصف الرابع.
- سلسلة المسرح للأطفال (8-1) قدمت على المسارح الأردنية .
- كتب الطفولة المبكرة (5-1) تناسب الطلاب من الصف الأول الأساسي.
- سلسلة حكايات علمية وأخرى (8-1) تناسب الطلاب من الصف الرابع .

كما صدر للمؤلفة :

- كتاب اليافاوية باللغتين : العربي والإنجليزي سيرة ذاتية (1).
- كتاب من يافا إلى عمان مع المحبة "سيرة ذاتية " سيرة ذاتية (2).
- كتاب ثقافة الأطفال في الأردن.

تصفح السيرة الذاتية واقرأ الكتب على موقع الكاتبة

Website: www.rawdahudhud.com
E-mail: rawdahudhud@msn.com

تطلب الكتب من دار كندة :

Tel: +96265929282 Fax: +96265922145
P.O.Box: 815331 Amman 11180 Jordan